محمد نفاع

كوشان

مجموعة قصصية

طبعة اولى
عكا ١٩٨٠

حقوق الطبع محفوظة

كوشان

الغلاف: سسيل كاحيلي

مـــرتان التقيت بحســـن وابراهيم . وبين المـــرتين يمتد زمـــان حسبنـــاه في البداية سبعة ايام ، فلما مـــرت قلنـــا سبعة شهـــور ، وانقضت هي الاخـــرى فتسامحنا وقـــررنا اذن ، سبع سنين عجـــاف ، لكنها مرقت وتـــركتنا ننتظـــر ، حتى صـــار هذا الزمان يحسب بعقـــود من الاعـــوام ، لكنها تبدو اكثـــر من ذلك بكثـــير ، نها ثقل الكابوس والرابوص ، يجثم على صدورنا في النهـــار والليل ، في انيقظـــة والمنام ، يريدنا ان نقف نائمين وننام واقفين ، ونحن نتململ لزحزحته على امل ان نفيق يوما فنجده قد انفقأ كالدمل وفش كالورم وانطفـــأ كالبالون ، كالفقاعـــة .

ويمتد مكـــان اقل ما يقال فيه انه بطول محيط بـــلادنا ، بلادي انا ، بطول مساحتها شبرا شبرا بكل حدودها ودروبها .

ما اطـــول الليل عندنا !! اما المكـــان فله ابعـــاد موغلة مترامـــية صحـــراوية !!

في المـــرة الاولى كنـــا اطفالا لا هم دنيـــا ولا عـــذاب اخـــرة . انا في بلدي ، واذا بالدرب تحمـــل حسن وابراهيم لاجئـــين مشيا على الايدي والاقـــدام والبطون من بلد اسمها انداموں ، وهي غـــير سجن الدامـــون القائم حاليا والـــذي ازاحها وقعـــد مكـــانها .

رايتهما فجأة في البـــلد ، قـــدام بيتنـــا ، طلعا من خيمة سوداء كعتمة اخـــر الليل ، نبتت بـــين يـــوم وليلة كما ينبت الفطر بعد زخـــم المطر كما توهمنا . وهناك التقينا بـــين دار وخيمة ، لنا عمر واحـــد وطـــول واحـــد فتعارفنا . وانا انيـــوم اذكـــرهما كما لو ان الزمان لم يقطع قيراطا واحـــدا طيلـــة السنـــين !!

ابراهيم يلبس فستانا اصفر كزهر الصبر والفراش ، مهشم الاذيال اهترات جوانبه بعجالة ، وله وجه اسمر رضى نظيف حتى الانف بالمقارنة مع بقية الاولاد ذوي الوجوه المعجفة المتسخة والذين يدلسون انوفهم بأكمامهم .

وحسن يلبس قمبازا من «الكارت» الاغبر فيه دروب بيضاء وبلا زنار ، ما أصغره من قمباز ، يبدو فيه رجلا طوله خمسة أشبار ، بشبري القصير الحالي . وله وجه كدر كماء البركة ، مهموم تماما ، قلما يضحك ، وان سبق وفلتت بسمة هشة فأن طبيعة وجهه ترفع استئنافا مستعجلا لتجميدها وايقافها عند حدها وتروح تذوب قبل أن تكتمل ، ليظل وجهه مشطوفا كالعليل ، وكلامه كالصراخ فيه اتهام ونتعة على الدوام ، تخرج الحروف والكلمات متزاحمة مضغوطة بلا تنسيق مسبق بينها .

لعبنا شهرا على المزبلة الكائنة قرب دارنا — مما اعطى البيت موقعا مرموقا — نجد فيها قطع الزجاج الملون والفخار المطلى ، وقطما من خيطان المصيص ، واكرار ، وتشاريب السختيان والنخل النابت بطول الاصبع من نوى العجوة واحيانا المسامير الصدئه وريش الدجاج الملون وكلها ثروة نروح نقتسمها ، وتنتهي القسمة بضرب الكماميد وتكون قسمتي من الضرب واللبط والعرش اضعاف نصيبي من الثروة .

في العراك كنت دائما « أجيء من تحت » والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه .

نحن معا ، في النهار نكبش الفراش وفي العتمة نلقط سراج الليل ونضرب حجارة الصوان لتقدح نارا تبرقط شهبا صغيرة متطاولة ويضج المكان بدق الحجارة كحومة من الضفادع الناقة المغنية ويصرخ الناس من البيوت :

— تخيب انت واياه دم يطرش من حلقك !!

— سطلتونا يا عفاريت !!انقلعوا من قبالي !! طق طق !!

فننقلع ويخيم الهدوء على المكان ونروح ننصب الى كلاب القرية ، وبحكم الضرورة نعرف كل كلاب البلدة ، نعرف الكلب الندر فنتحاشاه ولا نمرق من طريقه لانه يبدأ يعوي بلا سبب ويدغر عابسا ونحن لا نحاكيه ولا نشاكيه ، نخلف الكلاب مع بعضها فتتهاوش وتتعارش وتتشقلب على بعضها اكواما متحركة وتنبح نباحا مخيفا متواصلا .

وعندما كان اللعب في القمة ، في احلى لحظاته ونحن نشتم ونسب ام من يبطل من اللعب ، تابع حسن وابراهيم هجرتهما الى أماكن مجهولة بعيدة وراء الجبال التي تضرب طوقا واسعا عاليا حول البلد ولا نعرف ما وراءها .

صار اللعب لا يطاق ، وافتقدنا حسن وابراهيم ، كانا يهجمان على اللعب :

— يا خريبة يا لعيبه !! فنفسح لهما مكانا صاغرين .

وبقيت سنوات لا ارى في الجبال الا انها غيبت وراءها حسن وابراهيم ينتعف الثلج على العالم وتروح الجبال تفقد لونها شيئا فشيئا حتى تصبح عبارة عن مدرجات بيضاء تطل منها تعرجات ذات خضرة داكنة ، واشجار اثغابة تحني رؤوسها باستسلام وزفيرها السحيق المتخبط يهدر هديرا خافتا وانا انصت على هدير العاصفه يحمل في طياته وقع خطوات ، صوتا ، نداء منهما .

تذوب الثلجة وتمسح بطون الجبال مسحا وترتعش السيول والاودية وتظل تزغرد اياما مبقبقة متلعثمة ، ويزهر الشيح ويرشم بلونه الاصفر احزمة وعرية رخوة مهترئة

كالفستان ، ويتخايل الافق الناري ، والنجوم السيارة المنفلتة وصدى الليل ، فأحس بهما في قلب الاشياء جميعا .
لكن ثقل السنين يكاد يخنق كل شيء لولا ما حدث :

كالعادة انا لا املك سيارة ، ولا اجرؤ على التفكير بذلك ، لاني لا اتطاول على القطوف الحامضة . والمواصلات الى البلد متعسرة جدا ، والشارع موحش ، مصاب بعسر الهضم والامساك خاصة في الليل ، والنقود قليلة هي الاخرى بشكل يبعث على الدهشة والكفر المتين من الوزن الثقيل ، لذا اعود الى القرية مشيا على الاقدام ، مكره اخاك لا بطل .

بعد يوم عمل كالح متحجر ، تراني على الدرب في غياب الشمس ، وراس المغرب ، ومنتصف الليل ، واحيانا وجه النهار اتعلق على الصعود القاسي الارعن ، واتطلع الى المستوطنة الجديدة القائمة على الارض الحرام تشع انوارها وتمتد طرقاتها كالامعاء المتشابكة المعقودة لم أصادف في الطريق اشياء ذات بال ، مع اني اتضايق من الوحشة ومن الصخور الهائلة التي تظل تنظر الى الامام ببلاهة.وتفتح أشداقا معوجة مغفورة في البطن الصخري المعتم ، واشتم والعن كل ما تسول له نفسه أن يتسبب في ادنى ضجة فوق أو تحت او على الطريق من الوحوش الصغيره السارحه واعتبر ذلك استفزازا دمويا سافرا واقنع نفسي بأنه قطع علي حبل افكاري .. والله اعلم .

نعم لم يحدث شيء خارق ، ها انا في فتلة معتمة واذا الحزام الصخري يعكس ضوء سيارة راح يتذبذب ويرتج . وفعلا اطلت سيارة تتهادى وتئن انينا محببا ناعما ، هيأت نفسي ورفعت يدي بشكل مهذب راجيا الوقوف . اقتربت السيارة وعليها شارة تدل على أن سائقها طبيب ، فحمدت الله واثنيت عليه سلفا . لكن ماذا ؟ يبدو اني تعجلت في دفع هذه السلفة من الحمد والثناء لان السيارة مرت

كلمح البصر وزادت من سرعتها ، فناولت أم صاحبها عن كثب شتيمة واقفة من على موجات اثير .

— « يمكن حسبني فدائي » !! اقنعت نفسي .

كان بالامكان اهمال هذه التفاصيل لولا انها بداية لقائي الثاني بأبراهيم :

انا في القرية ، واذا بالجبال والدروب التي حملت ابراهيم لاجئا تكفر عن نفسها قتيلا وتعيده فدائيا او « مخربا » او مسلحا حسب الذوق والقدرة ، حيث قبض عليه بعد ان قام بعمل ما ، وهو اليوم في السجن ، ويتعرف على واحد من بلدي ويخبره :

جئت مع مجموعة من الرجال الى الوطن ، مذللين طوق المراقبة الرهيب . بقينا اياما في الجبال ، في اماكن مجهوله تحت الشجر الملتف ، في بطون الاودية والكهوف نختلط بالضباب والليل والشمس ، راينا الناس ولم يرونا ، سمعنا الاصوات في البيوت ، بيننا وبين تلك الامكنة وحدة حال ، الفة ، معرفة قديمة اصيلة وفي الحال عشقت كل شيء فيها ، الحجارة وغناء الاعراس ، ورياح الاودية الناعمة الباردة ، انقلبت الى انسان اخر ، انت لا تستطيع ان تفهم ذلك كما يجب ، اريد ان اقف ، ان ابقى ، ان اقضي عمرا بكامله اتحسس دفء الاشياء ، اعب من الهواء قدرا كبيرا ، اتحسس هؤلاء الناس ، اعيش حياتهم كل يوم ، يلهب وجهي لفح انفاسهم في الارض ، اتلمس الايدي تنازل الحجارة في الحقل الشذي ، فتتقيأ نفسي نتن العيش في طابور الغوث والتموين ، ومرت امام مخيلتي خشونة العمال المقدسة واباء العاملات بملابس العمل ، صرت اشم انفاسهم في دفقات الدخان المتصاعد من الورش والالات ، دهمني كل ذلك في ومضة فكر كالضوء ، لكن تبعها قصف

داخلي في ذاتي ، كنت اهتز وارتج واغلي ، قلبي يهدر ويتذبذب ، انها المرة الاولى التي اتعمد فيها في شبابي خفت أن يفلت قلبي من مكانه ويهوي . كانت الارض معتمة مجللة ، وقد ابتلعت بشوق ونهم خبط اقدامنا الفوضوي وتركناها تتردد في داخلها بترجيع عميق . مشينا ردحا صامتين ، كل واحد منا يتحدث مع نفسه ويناجي ما حوله ، والذكريات تفيض بجلبة وصخب كأرواح الموتى في منازل الاموات الاسطورية . نسمع كل شيء ، كل صوت نحس بقربنا من الارض ، لكن تنقص الحياة ، ينقص الدفء والحرارة والحقيقة الكاملة ، ويبدو كل ذلك على وجوهنا المتجهمة الواجمة . كنا نتخاطب بالاشارة نحن والاشياء ، بلغة واضحة حية . ورحنا نعاين القرى المهدمة المتربة اليابسة الموحشة . كانت وحيدة تعيش مع نفسها وماضيها وبقاياها كالعجوز ، فيها هزال مخيف وجهها خرب شاحب مريض ، وخفق عميق في قلبها . واجهتنا بكليتها ، لم نعرف ، هل نحن نتطلع اليها او هي وحجارتها ترنو الينا بتشبث عظيم ، احسسنا احساسا غريبا وهميا ، فحركة الاشياء الداخلية تكاد ترى بالعين المجردة وكأنها نشرت ماضيها دفعة واحدة قبالة الشمس والهواء ، كمن تشكو وتحتج وتستنفر الهمم ، لا اقدر أن اشرح لك ذلك تماما .
انت تنظر الى الساعة ، لا وقت لديك ، وانا اطلت لكن كل هذا حدث يومها بسرعة هائلة لا تقاس بدقات الساعة ، دهم هكذا دفعة واحدة واليوم احس بثقله ، له وزن قاصم دائم الحركة ، هو ليس كالحديد والحجارة ، انا لا اعرف ان كان للضمير او للامل ثقل ، وكيف يقاس ولكن شيئا يضغط من الداخل ، من كل الجهات والزوايا ، صارت ذاتي عبارة عن غصة وحمل ، شرقت بأملي كما يبدو فغاض ، كما تشرق الارض بماء المطر فيفيض .

كبرت في لحظة واحدة وتقويت حتى الطيش والجنون اضعاف اضعاف كل السنين الماضية ، وتحول كل ذلك

الى دافع جبار الى سوط ظالم لا يرحم عنيد من اجل أن أتقدم اكثر واقطع بقية الطريق ، فنحن ومجموعة اخرى على موعد الليلة ، وفي هذه اللحظة بالذات مررنا ببلدكم ، وانا اذكر منها نتفا متقطعة ممزقة منذ طفولتي التي حملوها احمالا تعجز عن حملها الجبال ، لكن لفولتي حملتها حقا ، وقد غاب عنها الرغيف والبيت واللعب ، في هذه اللحظة بالذات وصلنا الى الطريق المعبد الضيق ، والليل دامس بما فيه الكفاية ، لا احد في الدرب الا نحن وصوت الريح المتلاطم ، ومن البيوت البعيدة تسمع اصوات مهشمة يوديها الليل ، راميا اياها في احساسنا اليقظ المرهف ، طفل يبكي ،سعال ، وامور مألوفة دارجة وكلها كالمطرقة تطرق على باب ذكرياتي فيخلع بقسوة . وبشكل غير متوقع نسمع رنين خطوات تقترب من جوف الليل ، لها رهبة تجعلك تبلع ريقك في الحال ،عندما تصبح للاشياء مقاييس ومعايير اخرى مختلفه ، والخطوط تقترب ببطء وتضيع في الفجاج الليلي الحالك . احدهم اخذ يترنم بأغنية ،نسمع دندنة تروح وتجيء في مد وجزر تخرج من الريح والضباب والوعر . صار الشبح في متناول اليد ، ونحن نلبد في جب قرب الطريق ، هو يمشي على مهله ، ونحن احر من الجمر ، ، الواجب يغلي ويتلاطم كالبحر الهائج الصاخب المغبر المطرطش رذاذا وزبدا غاضبا ماحقا مجنونا . وقف الشبح تماما ، تراه قد احس بشيء ، ادار نظرة الى كل الجهات ، يخاطب الاشياء في الارض والسماء بصت النجوم الغائره واجنحت وقلبي يخفق بجنون ، همهمت الاوراق بلطف ، ومسحت نسمة باردة حرارة صدغي ، وهو يقف قربنا ، على بعد قامتين ، من هنا بالضبط ، حيث يقف هو ، نريد أن نمر .

وفي هذه اللحظة ، على قناة الماء المحفورة حديثا ، فترابها لم يجف بعد ومنه انبعثت رطوبة عطنة مضمخة باردة ، وقف يرشق العالم بنظرات حالمة كالعاشق ،

ويتنفس بأطمئنـــان وارتياح ، يبث شيئـــا للعالم ، يشكـــو ويترقب ، يحب ان يملك منه المكان فيزرعه انفاسا اثبت .لو وجدناه في مكان أخر وفي ظروف اخرى لفكرنا بغير ذلك . صار كمن يعترض طريقنا ، عقبة ، مانعا ، والعمليه يجب ان تتم في الوقت المحدد .

ونظـــرت الى البندقية في الليـــل ، احسستها فقـــط ، عرفت سحنتها ، احيانا اداعبها واحتضنهـــا كشيء محبـــب عزيز ، رفيق درب ، أما الان في هـــذا الظـــرف فهي شـــيء ثانوي ، لا حاجـــة لها ، ولكـــن ان وجـــدت فلا بد منها ، وها هي جاهـــزة جامـــدة . وكـــدرني ذلك ، صماء لا يعنيها من الامـــر شيء ، وانا أمقت الالة من هـــذه الزاوية ، حـــركتها فاستجابت ، انها سريعة النهوض ، تستعد ببلاهه وتظهر قبولا ، رفعت يـــدي عن جسمها فعادت الى جمودها ، ظلـــت يدي تربت على بطنهـــا ، وانا اعـــرف ردها على كل حـــركة سترتفع بتثاقل وتدير فمها المفتوح الى الطـــريق ، الى ذلـــك الذي يقف بصلف . سترتج بعض الشيء وتخـــرج ما فيها من حقـــد ، تعطي عطسة شنيعة مرعبة ، لاسمع شيئا يطرطش طرشا واسمع ترجيع النار في الابعـــاد كارا متدحرجا ، وفي الوقت نفسه يخفق شيء في داخلي ، يتحرك ، يتذبـــذب بسرعه فضائيه ، ثم اسمع صوتا ، لكنه ، انة ، تمزقـــا ، ولحظه ناطقه جوفـــاء . وهمـــود مريـــع

ظلت الاصوات تتوارد مـــن القـــرية كالافكـــار ، حولت نظـــري عن البندقيـــة ، ثم اعدته . أما هـــو ، الشبح ، ابن قـــريبكم ، فيقف مترنما وقـــد باعد قليلا ما بين رجليـــه ، يقف على راحتـــه ، يواجه الجبل حيث يجب ان نكـــون بعـــد دقائق وكانه يرسم في الليل صورة انســـان ما عزيز ، لم يبق الا ان نضع حدا لندخله ورحت افعل ذلك بحركات بطيئـــه مقيتـــة بلا احساس لان ذكـــريات الطفولة واجهتني كالطود في هـــذه القـــرية ، تطرت ذاكـــرتي ، ذكـــرت طفـــلا ،

استطيع ان اصفه لك ، اسمـــه ... لعبنا على المـــزبلة باب بيتهم ، جمعنـــا الزجاج الملون ، لاعبنا الكـــلاب وعذبناها .

لكـــن يجب أن نمضي ، يجب أن نضع حـــدا لتصـــرفه ، مـــرة اخـــرى ثم افرض البطء والتمهل ، تحـــرك هو الاخر ، وفي اللحظـــة نفسهـــا التي رحت المس البندقيـــة اتناعمة كأن حملا ثقيـــلا كالجبل زاح عن صدري ، تنفست بعمـــق ، تـــرك المكـــان بسرعة وكأنه يقصد ذلك ، ووجدت نفســـي أتابع مشيتـــه وهو يقطع الطـــريق . هو الوحيد الذي عرفته يوما ما ، كانت امنيتي ان يفعل ذلك ، حتى لا اقطع علاقتـــي الطفولية بهـــذا المكان ، أحسست انه معنا ، شاركنا الانتظار درس الطـــريق معنا ، وحيث يقف هو ، هذا هو السبيـــل الى الهـــدف المنشـــود .

نعم شعور غـــريب ، وقف حيث يجب ان نمـــر وتركنـــا في الوقت المناسب ، كان اســـرع من البندقية لانه هو ، ولانها معي ، كان اقـــوى منها ، تغلب عليها وساهمنا نحـــن الاثنين فـــي ذلـــك .

ـــ لانه واحـــد منكـــم بالضبـــط ! !
قـــال ابن قـــريتي لابراهيم بحماس .

وسكت ابراهيم ابن الدامـــون وســـرح بنظـــرة خارج جـــدران سجـــن الدامون كما علمت ، وبنفس اللهجـــة راح هذا الشاب يحدثني عن لقائه بابراهيم في نفس المكـــان من الطريـــق محاولا ان يعيـــد ما سمعه وانا اكمل المعلومات ، وابن بلدي متأكد اني انا المقصود ! !
ـــ أنت وحـــدك تظل على الـــدروب في الليـــل ! !

لم أطق هـــذه الكلمات تبقى في صدري ، تبقى ملكـــي ، بل راحت تتحفز وتتدافع للخـــروج ، فاكثرت من الكـــلام حول الموضـــوع حتى عـــرفت به .

استطيع أن أصفه لك ، اسمه ... لعبنا على المزبلة باب بيتهم ، جمعنا الزجاج الملون ، لاعبنا الكلاب وعذبناها .

لكن يجب أن نمضي ، يجب أن نضع حدا لتصرفه ، مرة أخرى ثم أفرض البطء والتمهل ، تحرك هو الاخر ، وفي اللحظة نفسها التي رحت المس البندقية اتناعمة كأن حملا ثقيلا كالجبل زاح عن صدري ، تنفست بعمق ، ترك المكان بسرعة وكأنه يقصد ذلك ، ووجدت نفسي أتابع مشيته وهو يقطع الطريق . هو الوحيد الذي عرفته يوما ما ، كانت امنيتي ان يفعل ذلك ، حتى لا اقطع علاقتي الطفولية بهذا المكان ، أحسست أنه معنا ، شاركنا الانتظار درس الطريق معنا ، وحيث يقف هو ، هذا هو السبيل الى الهدف المنشود .

نعم شعور غريب ، وقف حيث يجب ان نمر وتركنا في الوقت المناسب ، كان اسرع من البندقية لانه هو ، ولانها معي ، كان أقوى منها ، تغلب عليها وساهمنا نحن الاثنين في ذلك .

— لانه واحد منكم بالضبط ! !
قال ابن قريتي لابراهيم بحماس .

وسكت ابراهيم ابن الدامون وسرح بنظرة خارج جدران سجن الدامون كما علمت ، وبنفس اللهجة راح هذا الشاب يحدثني عن لقائه بابراهيم في نفس المكان من الطريق محاولا ان يعيد ما سمعه وانا اكمل المعلومات ، وابن بلدي متأكد اني انا المقصود ! !
— أنت وحدك تظل على الدروب في الليل ! !

لم أطق هذه الكلمات تبقى في صدري ، تبقى ملكي ، بل راحت تتحفز وتتدافع للخروج ، فاكثرت من الكلام حول الموضوع حتى عرفت به .

واليوم وجدت نفسي في لقاء منظم رسمي ، ثم تهلهل وساده جو الفوضى ، كنا في قريه قلما يذكر اسمها ، عادية جدا ببيوتها ودروبها واهلها ، صخرية يابسة ، يلعب في أجوائها الغبار وفي طرقاتها وازقته التراب ، رجالها من عمال البناء ، ايديهم ناشفة كالجلد اليابس ، قلما يحلقون ذقونهم .

انا لا اعرف هذا الخليط من الناس ، نعرف بعضنا لان دمنا يرشق على بعضه كما يقال ، نعرف بعضنا بالواجب ، بالانتماء اكثر من الاسماء ، لنا اسم واحد ، وكنية واحدة ، لا نهتم بالتفاصيل الاخرى كتلك المسجلة على بطاقة الهوية مثلا ، فيها الطول ولون العينين والشعر ، وعلى الغالب تكون الخانات المخصصة للاولاد حتى سن ال ١٨ سنة معباة جدا لدينا ، أغزر واكثف مكان في بطاقة الهوية ، تأخذ صفحتين كاملتين ، تصبح الهوية كلها سجلا للاولاد ، بينما ظلت الخانة التي تقول تاريخ « الصعود » بمعنى الهجره الى هذه البلاد ، ظلت فارغه من الارقام ، كما يبدو لان الوطن الذي ولدنا فيه ونحن اهله وسكانه أعلى بكثير من كل دوائر تسجيل السكان الموجودة في البلاد ، لذلك ظلت الخانة تنظر الى تحت .

وهكذا رحنا نخوض غمار الحديث ، نشرق ونغرب نقبل ونشمل ، عن القضيه ، عن الهويه ، فعليها يدور كل الحديث ، فهي كالخبز لا تفقد رونقها ولا طعمها ، ندور في فلكها دائما ، وكل حديث عن كل شيء ينتهي ويتصل بالقضية ، كل يوم نسمع ونقول ، تتغير تعابير الوجوه وتغلي من انداخل ، تغلي قبضاتنا ، صارت عادة فينا ، نطرح القضية بشكل متواصل بلا توقف .

راح كل واحد من المجموعة يصغي بطريقته الخاصة وانا احكي بشكل تمثيلي اعجبني . ومن بين الجميع ، هو وحده يصغي بانتباه عجيب الى حديثي والى نفسه ، ينقل

نظره بين الاثنين ، لا يريدني ان اتنفس ، ان اتوقف ، وعلى ذكر ابراهيم يرتد نظره على وجهي ، يطلب من الكلمـــه ان تتجسد في شخص ، ووجهه يحتقن ، تتلاعب عليه الذكـــرى كمـــا تتلاعب اشعة الشمس على وجـــه الحقـــل المذهب ، وانا اتكلم عن انفستان بلون زهـــر الصبـــر ، عن حادثـــة البندقية ، وسجن الدامون ، عن حسن والزجاج الملون .

وراح هو يعاين المكـــان المقصود ، يـــدور متمايلا كدوار الشمس ، صار الحـــديث له وحـــده ، احس بقية الشبـــان احساسا غـــريبا ، وهو ينظـــر في وجهي بشكل فظ مريـــع ظل جالسا في مكانه بعيدا عني ، لكـــن وجهـــه يقترب منـــي ويحـــرك كتفيه كمـــن يزيح حمـــلا ، او يجهز نفســـه لحمل ثقيل جـــديد ، الاخـــرون ينتظـــرون ، شعروا ببعض الغربة ، ظل هو وانا نتكلم ونصغي ، نضع الفواصل والنقاط ونتخطاها ، ونرسم علامات استفهام من نـــوع جـــديد ، ناولني شيئا بيد مـــرتجفـــة .

ـــ بطاقـــة هـــوية !! كـــوشان !! ماذا ؟
انا حـــ ....
ـــ انت حســـن ! !
قـــرات . لفظنـــا اسمه في وقت واحـــد .
الصفحـــات المخصصة للاولاد معباة جيدا . ضحكنا .
ـــ وهـــي حبلـــى ! !
ـــ مـــن !! اه !! تقصـــد ....

العالم ، المنطقـــة ، الارض والجبـــال والسهول كلهـــا حبلـــى ، وستلد مولودا جـــديدا .

لاننا نحب الارض

كوشان ــ رقم ٤

لاننا نحب الارض

يبدو ان الورقة التي سأحدثكم عنها بعد قليل كانت تقبع في حقيبة موزع البريد كغيرها من الاوراق التي تنتظر دورها . ونحن هنا من مطلع الصبح ، فالايام ربيع ، واشعة الشمس الفضية تنسكب على قمم الجبال وتدخل من النوافذ المفتوحة وانت لا تزال تشعر بحاجة الى النوم او البقاء في الفراش صاحيا ، ولكن الحقل يتطلب غير ذلك ، وابي يسبق الفجر في النهوض .

في الطريق كان كل شيء في القرية قد استيقظ ، بل ان الجمال المحملة بالقش كانت راجعة من الحقول الى البيادر لتفرغ حمولتها وتعود . والدجاج والحمام يلتقط الحب الساقط على الطريق او يفتش عنه جاهدا في روث البقر والجمال . وابي الذي يسير امامنا بخطوات واسعة ينظر الى كل الحقول المحيطه وكأنه مسؤول عن حصادها : الشعير هنا قصير ، كانت الارض موحله وقت الزرع ، والبذار هناك دليل ، نظر من فوق السياج واستطرد : لا . . الميه جرفت الارض ! ! ولانه ينظرهنا وهناك كان يحيد عن الطريق احيانا ويصطدم باغصان اللوز والزيتون المزروع عند اسوار الارض من جهتي الطريق فيتساقط حب الندى على وجهي وانا اسير وراءه بالضبط محاولا وضع قدمي محل قدميه فينتبه قليلا ويهمهم ولكنه يعود ليقع في نفس الورطه من جديد الى ان وصلنا الحقل . وقصد الى شوكة السويد الكبيرة التي عمل منها سدة للارض فازاحها بسرعة ودخلنا . وتطايرت العصافير من شجرات الزيتون وسط الحقل لتحط في مكان اخر ، فنظر الي اخي الذي حاذاني في السير نظرة ذات معنى وهو ينظر الى الطيور بتحسر، لكن الامر جدي اكثر مما يتصور ، وها

ابي يخلع سترته في الحال وأمي تضع الزوادة ودلو الماء تحت التينة و . . بدأ العمل .

ـ انهر العنزات على الحصيد وتعال !

وتفرقت الجديان والماعز في الارض المحصودة وراءنا تفتش عن الاعشاب الخضراء وسنابل القمح . والحقل يمتد امامنا اصفر واسعا وقد احنت السنابل رؤوسها جهة الشرق . كان القش رطبا طريا لا يتكسر بسهولة ، ولكن ما ان تقدم النهار وازداد شعاع الشمس دفئا وتوهجا حتى جفت السنابل وهبت عليها نسمات الهواء فتموجت وسمعت لها خشخشة . وراحت الفراشات الملونة تطير فوق السنابل بهدوء او تحط على نبات العلت الذي يرتفع فوق القمح بازهاره الزرقاء وتحرك اجنحتها ببطء . واخي الاصغر مني يلاحقها بنظره ويتذرع بكل حجة ليلتفت ويمشي هنا وهناك ليتخلص من العمل الشاق ، ويشكو من تراكم الدروس والاعمال البيتية لهذه العطلة القصيرة التي لا يعرف كيف تمر . وعندما يجد متسعا من الوقت ويوقن ان والدنا منهمك في العمل وصوت منجله هو كل ما يسمع يدني رأسه مني ليقول : ان ابي يستغلنا ايام العطل المدرسية ويتخذ مني مثلا للرد على احتجاجات صقر ـ وهو اسم اخي ـ التي هي في صالحنا نحن الاثنين ويتهمني بالخنوع لابي فاعمل طول النهار الى جانبه ولذلك فأنا لا ابرز في الدروس مثله .

بالنسبة لي وانا ابن الثالثة عشرة واكبره بثلاث سنوات الامر يختلف . . فأنا اجد لذة كبيرة للعمل في الحقل بجانب ابي وامي اللذين كانا في اواسط العمر ، كنت اقضي الساعات الطوال بين اشجار الزيتون الخضراء واشجار العنب المعلقة انتي تتدلى منها القطوف غير الناضجة ، اسمع الى الصغار والعنادل تغرد فيمتلىء قلبي بهجة . ومع اني اعارض اخي في وجهة نظره الا

اني اكن له في نفس الوقت حبا جارفا ولا اطيق الابتعاد عنه . كانت بعض رؤوس الماعز والغنم السائرة على الطريق تطل برؤوسها فوق السياج وتثغو بلطف وهي تنظر الى الحقل الشهي والاعشاب المخضرة وماشتنا التي ترتع سعيده لكن السياج القوي الشائك يجعلها تتابع الطريق متحسرة ، اما ماشيتنا فلا تكلف نفسها الا ان تلقي نظرات خاطفة لترى من المنادي وتروح ترعى من جديد .

وعندما اقترح صقر طريقه جديده في الحصاد ثارت والدوائر في الحقل الاصفر ، وشجعني صمت ابي وعدم اعتراضه فرحت اشاركه في عمله . ووجدت حجة ابي بسيطه ومقنعه في نفس الوقت ، قال يرد على اعتراض امي : المهم ان يحصدوا هنا او هناك ما الفرق ! ! والسنبلة التي يقلعونها لا تعود وتنغرس في الارض من جديد . المطلوب هو ان يحصدوا . واكتفت هي بأن قالت : هذه اعمال شيطانية وانت عودتهم عليها . وانتهى النقاش وابتعدنا نحن اكثر فأكثر نعمل الدروب في الحقل .

ولانا نعمل بنشاط والجميع يشهدون لنا خاصة آبي فقد شعرنا بالتعب ونحن عائدين الى القرية ، وانا شخصيا احسست بالجوع ، فان وجبة واحدة من الطعام عند الظهيرة لا تكفي في يوم شاق طويل من ايام حزيران ، لكن عادة الناس في القرية ان يأكلوا مرة واحدة في الحقل .

اوشكت الشمس ان تغرب وراء الجبال العالية عندما وصلنا القرية ، وصخب الناس والحياة عند الغروب تماما كما في الصباح ، كانت قوافل من الناس ومعهم الحيوانات تسير في الطريق والاولاد الصغار ينتظرون امهاتهم اللواتي قضين النهار في الحقل ، وما ان تصل واحدة منهن الى مدخل القرية حتى يأخذ احد الاولاد بأذيالها او يجبرها ان تحمله على صدرها الى البيت ويحتج على غيابها طول النهار وتبدأ هي تسوي من هندامه وتنظف وجهه بيدها .

دخل موزع البريد وكأنه معنا على موعد وناول ابي مغلفا وطلب منه ان يوقع اسمه على ورقة . وانا اشعر باهميتي كلما وصلت الينا رسالة ، يناولني اياها ابي ويرهف السمع وانا اقرا فضضت الرسالة ورحت اقرا :

..«نحيطكم علما بان دائرة تسوية الاراضي وجدت ان قطعة الارض التي في حوزتكم هي ملك للدولة لانها كانت في السابق احراشا تابعة للدولة ، ويعتبر الامر ساري المفعول من تاريخ استلامكم هذا الاشعار ، وكل مخالفه تعرضكم للعقوبة

..ملاحظة : يمكنكم المراجعة خلال شهرين من تاريخ الاستلام

كنت اتوقع من والدي ان يبدي اهتماما اكثر بالموضوع وندمت على الصوت الجهوري والطريقة الخطابية في قراءة الرسالة المكتوبة بخط واضح ونغة عربية . واظن اني انكمشت قليلا وانا اتحمل نظره ابي الساخرة .

ـــ حسنا سنتعلم كار الشحادة كما يريدون !!

وراح ابي يفكر بصمت ، لكن بعض الناس بدأوا يتوافدون الى بيتنا مهرولين في ملابس النوم فارعين دارعين يحملون الاوراق الساخنه في ايديهم بعضهم يشتم وبعضهم يقهقه واخر يطلق كلمات رصينه .

ووجدت امي العزاء في مصاب الاخرين . قال ابي : انا لا اصدق هذا ابدا ، هل الورقة مكتوبة بأسمي الكامل ؟؟ دقق النظر !! وعندما اخبرته بصحة الاسم تحول عني حانقا :

ـــ نترك الارض بهذه السهونة !!
ـــ هه !! حكومة !! قال احد الحضور .
ـــ بلا بطيخ اصفر ! ولاول مرة التمعت عينا ابي ببرق مخيف .

ـــ ما احلاك يا حكومة وانت ماخذة « خلة النمر » !! وكان هذا اسم قطعة الارض . قال احراش !! مرج ابن عامر كان « احراش » والناس صلحته .

ودب الليل مقمرا ، والنجوم تشع ، والحشرات المضيئة تطير هنا وهناك ، لكنه ليل ثقيل وابي يتقلب على الفراش بهدوء حاسبا انا غفونا ولكني ارقت انا الاخر وانا افكر في الحقل الذي زرعنا فيه كل شيء ، كانت امي تعود من الوعر وعلى راسها «حملة» ثقيلة من الحطب اليابس وجبهتها تتصبب عرقا وشفتاها جافتان من العطش وحرارة الشمس تصعد من الارض الساخنة المشوية ! ومع ذلك كانت في كل مرة تجر وراءها فرعا من شجر السويد الشائك لتضعه على السياج خوفا من اذى الماشية .

وابي يجمع الحجارة الصغيرة والحصى من الارض ويضعها في اذيال قمبازه ليرصفها على الجدار . وانا واخي صقر نجمع سنابل القمح قبل ان تصفر وتحصد ونجعلها اضاميم لنعمل منها فريكه .

وعندما افقت في الصباح الباكر على غير عادة وجدت ابي قد هيأ نفسه ناشطا كعادته وجذلا ، وراح يوقظ اخي الصغير الى الحقل :

ـــ اين وضعت الورقة ؟قال احدهم لابي ونحن في الطريق الى الحصاد .

ـــ في جهنم بعيد عنك !!

ـــ ولماذا انت ذاهب الى الحقل !!

قال اخر مازحا في الطريق الى العمل ، الارض راحت!

اجاب ابي بوضوح وثقة : لاننا نحب الارض !!

تمرين في الدفاع المدني

ذيب اغرب رجل في البلد ، كل مهنة يختارها افظع من الاخرى . يعن على باله فيحضر « حصان الشبا » ويصبح حديث الناس ومحط انظارهم . وهو امهر واحد في خصي ثنيان الماعز . والعديد من النساء خاصة الارامل اللواتي يمقتن الفار ، يربين القط ويتعبن عليها ويحملنها الى ذيب مشتكيات :

ـ لو « تطوشن » هالبس مالي القزعة كذيب احسن !!
ـ ليه ، كثير غنبه ؟ هاتيه تعال تودع . خذ نصيبك . مالك خايف موجوع ؟ ناو برناو اهدا اهدا !!

ويحرك اصابعه بين رجلي القط وما هي الا لحظات حتى يروح القط في عالم من الوجوم والدهشة يفكر في هذه القسمة العاطله وهذه المزحه الثقيله من ذيب التي المته وغيرت نفسيته فصار حالما متصوفا ورعا . وفي لحظة يشعر بجفاف في عاطفته تجاه الصبايا من بنات جنسه وهو الذي تحمل الاهوال ايام عزه وكاد يستشهد ببطولة فى سبيل ذلك.

ويأتي احدهم بدابة الى ذيب ليحدد عمرها وهل هي اهل لنقل الحطب والماء وللحرث فيجيب الرجل بأن يفتح شدق الدابة ويتفرس في انيابها ليجدها على الغالب قارحة في اخر حياتها وفي الشتاء يتنقل ديب بين زرائب الماعز يسلخ جلود الفطائس ويبيعها . وقد تحولت باحة داره التي لا تزيد عن مساحة مسكب البندورة الى معرض غريب . تارة يهيء جلالا ويفصل ظهارة او ينهمك بكشط حوافر كديشة لحذوها ، واخرى يكوي عنزة مريضة مرتخية مصابة باسهال تروح تبعق من قحف راسها بصوت ممطوط مستغيث من هذاالجحيم

بعدها ينتقل الى ديك بلدي احمر معتز بنفسه لكن احدهم كسر رجله فتأتى صاحبته به فارعة دارعة وكـأن قامت القيامـة ووقعت الندامه تلعن وتسب : اللى ساقها ان شاالله يتلقاها في قصبته السمرا ... تسوى على انعدا ... وها هو ذيب يجبر رجل الديك بلصقة من السلح الاصفر المتوفـر اكوامـا متشابهة في المكان وعلى الدرب . كل هذه المهام الملقاة على عاتق ذيب جعلت اسمه يتردد حتى في القرى المجاورة .

ولذيب مظهر غريب ابعد ما يكون عن الروتين . لم يلبس مرة فردتي حذاء تجمع بينهما اخوة او قرابة او حتى نسب ، فهما تختلفان في اللون والمكانة والجنس ، فهذه فردة بسطار لم تحافظ على امجادها السالفة واخرى فردة مشاية لها في الحياة تجربه غنية وصولات وجولات تركت اثارها على اعلاها واسفلها . واحدة بلا لسان واخرى لها لسان دالع بلا مبرر وقد آلى على نفسه الا يغير وضعه ابدا وثبت على كلامـه . واحده برباط من خيطان المصيص واخرى وضعـت حـدا وتخلصت من هذه الكماليات والمباهج

ـ ذيب يمشي مفاحجة والعلم عند الله مقروق من غـير معيرة !!

وكيف خلقت عيناه بهذا الشكل ؟ وقد شقط بياض مريض عكر كالقذى كاد يستر البصوص تماما وتفتلـت الرموشـ المعمصة المبللة قصيرة تكاد تختنق . وعلى وجهه تضاريس الارض الجبلية ، تجاعيد وترهل وانحناءات ومنعطفات وتبويز ونتوء وتقعر تعايشت مع بعضها في وفاق ولا يمكن ان تصلح لموضع اخر غير وجه ديب الكالح المتلطف . وله ابشع شنب شوهد أو روى عنه مكشكش متهدل رانخ ، كل شعرة منـه ولها الحق في تقرير المصير ، نمت على عاتقهـا واستلبـت حريتها الشخصية بلا تعاضدولا تضامن في هذه المعاصي التي اسمها وجه ذيب . واذا تلاقت رؤوسها فكأنها تنحني لتهمس شيئا في أذان جاراتها بشكل مؤقت فظليجمعها اتحاد فدرالي

هش تبدأ الاطراف بتقويضه قبل ان يجف حبر الاتفاق على اقامته .

وها هو ذيب يجد الطريق الي ، الى مكتبي انا المحامي ، اول محامي في البلد كالثمرة المبكرة في غير اوانها ، أدخلت الى القرية كلمات واصطلاحات اعجمية تلوكها السنة الفلاحين دون ان تقدر على هضمها فترميها كالنوى . انا ارتدي بدله بنية بلون الخروب تفصيلها مغرق في الفرنجة حتى الاذنين لم يسبق لاحد هنا ان لبس او حتـى رأى ـ لا البصريـه ولا العلمية ـ مثل هذه الملابس ، واتبعت البدلة بحذاء بني لامع مزهو مشقرق على ظهره من الضحك لاهو بالطويل ولابالقصير كأحزاب الوسط ، واكملت العائلة البنية بربطة عنق لا تشت عن الموضوع ، وبدت لي ملابسي متكاملة كالجملة المفيدة اذا فقدت أحد أركانها او نقاطها تشوهت ونقصت ولم تؤد الغرض المطلوب واعجبتني الفكرة جـدا .

كان تخرجي من الكلية حدثا صاخبا في البلد وحمدت الله واثنيت عليه أنه أدى هذا الواجب تجاهي ، ترشقني نظرات الاعجاب في كل جسمي ، يحفظ الناس عن ظهر قلب موديل ولون ملابسي ومكتبي ورقم سيارتي ونوعها وزامـورهـا ، يبدأون بتحيتي بالسنتهم وأيديهم ووجوههم ، استقبل وأودع بدعاء عميق سخي من المفروض ان يستجاب له بعد لحظات .

تفاجأت بما فيه الكفاية ان لذيب قطعة ارض صغيرة لها اسم وموقع راح يصفها ، يصف تاريخها وسحنتها ومساحتها وحدودها فاسكته بنظرة فظيعة ولكنه لم يأبه بى . وها هـو يأخذ مكانه على الكرسي الجلدي ويتكيء بارتياح وانطلاق على حافة الطاولة اللامعة كالمرآة ، واكمل بأن الدولة تسن اسنانها وتراوده على الارض . ودهشت من هذا الامر كيف ان الدولة اكتشفت واحدا مثل ذيب وهي البعيدة كل البعد عن المهن التي يزاولها الرجل وليست من زبائنه على الرغم من كثرتهـم ، وكيف انتقل اسمه وملفه من دائرة حكومية الى اخرى ومـن

موظف الى موظف ، وتصورت الموظفين المتأنقين المتنعمين يهرولون ويكرجون من غرفة الى غرفة وهم يتأبطون ملف ذيب وينطقون باسمه ويتداولون ويدخنون ويشربون القهوة ويتكلمون بالهاتف ويتباحثون ويؤجلون ويطبعون اسمه على الآلة الكاتبة ويرسلون الرسائل بالبريد !!

وها هو بالفعل يوصوص بعينيه في المكتب وينتشل من جيبه ورقة ذات مصير معتم وهي التي قبعت في الجيب الموغل في عمق الملابس فامتقع لونها كالسجين وبهتت خجلا وغضبا وحياء كالعاشقه المستحيه . وحاول الختم الحكومي المدور على البيكار .. ان يضفي عليها مسحة من انكبرياء والجدية لكنه راح في الدوكة ومعمعان الدعك فقصر عن ذلك او بعضه وظل قابعا مهملا مبتذلا وقد اخطأ مكانه ومكانته على الورقة المجعلكة المنطوية عـلى نفسهـا .

وراح ذيب يسعل بنوع من الكماليات كما يفعل المخاتير والوجهاء تماما فلم احتملها منه وهممت ان اوقفه عند حده . أن اطرده ثم عدلت عن ذلك حتف انفي .

وذيب للمعلومية وحيثيات القضية بلا اولاد لكنه حط مؤخرا على امراة او ما يشبه ذلك عليها بعض اللحم المتعجز حتى ان فيه شيئا من البياض الرخو المهلهل كالغيم .

— خايف الارض تضيع ... وعمتك العم عند الله حبلي!

وسوى من جلسته ليأخذ راحته بشكل افضل . فال الله ولا فالك !! عمتي آ! أعوذ بالله من هذه القرابة ، كيف الصقت بي هذه التهمه هذه الجناية ؟؟ وتقززت نفسي ونظرت الى بدلتي البنيه مواسيا لئلا يعلق عليها شيء من هذه القرابه الداهمه المفروضة فرضا من جانب واحد بلا اي اساس قانوني وبلا اي بند من البنود الفرعيه . ووجدت نفسي استعرض شريعة حمورابي والقانون العثماني لئلا تحوي بندا يوحي بمثل هذه القرابة او يشير اليها ولو من بعيد

فلم أجد . وشعرت بأني ربحت القضية ولا مجال للاستئناف . قال عمتي !! ونظرت الى المكتب متفحصا لئلا تحوم هذه القرابه في ارجائه واسكته متأفقا .

— في جهنم بعيد عنك !!

— عمتك تقول اذا لا سمح الله قرب واحد على الارضيات نحط ربنا وراء ظهرنا !! . كنت على وشك ان أصرخ واحتج واقاطع واصدر قرار الحكم بخصوص هذه القضية مع التنفيذ الفوري ، لكنه وضع امامي على الطاولة اوراقا نقدية من كل الانواع والاعمار كالعائله المتكاملة فيها الجد والجده والوالدان والاطفال وكلها مطوية ومكبوسة ومشرتحة ومبقرة باردة متضايقة على شفا الاختناق ، لكن ما ان اخذت مكانا على طاولة المكتب حتى احسست نحوها بوداد والفة ، رايت فيها الحياة والحركة . وها هي تبص الي باستسلام وكأن بيننا معرفة قديمه ثابته الاواصر فرددت على خطوتها الكريمة بالمثل وجاملتها والتفت اليها بكليتي لفتة كريمة من ندني فأنا على العهد . ولولا هذا الموقف المحتشم المحافظ لنفحتها ببسمة بكل ما في هذه الكلمة من معنى كتلك التي اوزعها لمعشر النساء ومسؤولي الحكومة بلا مناسبة وبلا ان يرد علي بالمثل في الحالتين . واردت التقرب الى النقود للتو بلا مقدمات . فالانتظار صعب على العشاق والمحبين ، كان عندي الف باب يدعوها الى الدخول ويستعد لاحتوائها والف طاقة ونبشة ترحب بها ، خاصة وانها ضيف خفيف الظل ما ان تدخل حتى تتهيأ لنخروج واحيانا تعرج عن الطريق قبل ان تطأ رجلها عتبة البيت وتكتفي بتوقيع اسمها في سجل التشريفات . فهي دائما على عجالة من أمرها ، لذلك تناولتها متكلفا كمن اصيب بوعكة . لكن هذا التكلف تبخر كالغاز مدحورا ما ان اقتربت منها واستشعرت الدفء والحياة فيها . فما ان مستها يدي حتى دخلت نفسي في طور النقاهة بعد الوعكة ومرت كلمح البصر وانتقلت الى فترة الشفاء التام انا الان املك صحتي وانا ادسهاعلى علاتها بتحبب في حافظتي

واحس الـــرجل أنه فقد شيئا من كيانه ، من نفسه وهو يرى نقوده تفارقه الى الابد ولسان حالها يقول : اني راحلة!!

ـــ طيب !!

هكذا اوعزت لذيب وكأن الامر انتهى . لكن هذه الكلمة المجردة اليتيمة الدارجة الصغيرة كالميني والبكيني لا تكفـــي براي الرجل ولا تطعم وهو الذي سرد كل تاريخ حياته وزف الي البشرى ان عمتي حامل وحدد مساحة الارض وحدودها وتطرق في عـــرض الحديث الا الحكومة والدوله والمحاكم ووضع على الطاولة حزمة مشعثة من النقود ... نكنه قـــام متهيئا للانصراف بغير حماس وطرق الباب بالفة وعنف وكأنه باب بيتهم . وترك في المكتب فراغا ووحشة أو شيئا من هذا القبيل . وادخلتني زيارته وقضيته في انتظار شفاف .ماذا حدث لي حتى رحت أترقب يوم المحكمة واستعجله !! هـــل للتخلص ولو لساعة من هذا الروتين الذي يدب في حياتـــي وعملي !! اكثر مـــن ذلـــك ، فلـــم استبعـــد امكانيـــة ان التقط ذيب معي في السيارة ونذهب سوية للمحكمة ، وها هو قد قرر ذلك من طرف واحد وعن سبق اصرار كأمر بديهي ، وازاح عن جسمه وملابسه راقة من الاهمال والقذارة والدعك وكأنه يمر في حلم لذيذ مترقرق أبيض ،وجلب معه زوجته التي رحبت بالفكره ممتنه ولم تقلب ولا صرارة . وفي الطريق الى المحكمة راحا يتحدثان بطلاقة والفة ووحدة حال وهي تجلس على المقعد الخلفي بشكل ملموس وتأخذ حيزا ككل الاشياء ، والسيارة تقطع الطريق برشاقة . تحدثوا عن شؤون البيت وقضاياهم اليومية والمناظر على الطريق . وتداخلت وانا في شبه غيبوبة وخدر ، اسير لاني يجب ان اسير بهما فقط. وفي الساعة المحددة ووجه الحاكم بذيب وزوجته كمركب لا ينفصل الا بطرق كيماوية صعبة . كان الحاكم مدججا من راسه الى اخمص قدميه بألوقار وانرزانه فشفطته الامراه بنظره متسارعه دائرية اهليجية حائمة . اما ذيب فلقح عليه نظرة متمهلة كاحد زبائنه القدامى الذين يتعامل معهم يوميا بالرغم من الجدية

والهيبه الضاربه اطنابها على وجه الحاكم ويديه وملابســـه وجلبابه ونظارته وشعر راسه المقسم الى خصلات تقسيما هندسيا بارعا دقيقا والمندلق الى الوراء بتعنت مكونا علامات « لا » و « تسؤ » تقال بالحاجبين والجبين . ونطق الحاكم باسم طويل متداخل من عدة كلمات واذا بذيب يشهل نفســـه ويتطاول لها ، وعجبت كيف ان هذا الاسم ينطبق على ذيب تمام الانطباق وكيف يسع مثل هذه الكلمات المكونة من حروف الابجدية كلها ونقاطها وحركاتها وكيف كان هذا الاسم طوال السنين ، طوال العمر في محاق دائم ؟؟ حتى ذيب كاد ينساه ولذلك راحت اذنه تتلقفه بحب وشغف وكأنه وجد لقية ضائعة عزيزه .

ورمقت «عمتي» زوجها بلطف وطبطبت على بطنها باشراق وتطلعت حولها باعتزاز واكملت النظرة في وجه ذيـــب :

ـــ بقولوا اسمك في المحكمة كـــ .... !!

وافهمها بلفتة مجهضة منه ان هذا امر طبيعي ومألـــوف ومعروف له جيدا ، ماذا حسبت ؟! لماذا لا يقال اسمي تماما كبقية الاسماء ؟ هل تشكين في قدرتي ورجولتي ؟ ومن سبب لبطنك ان يكبر على هذه الصورة يكاد يصل لحلقك ومـــن لا يعرفني في البلد وخارجها ؟ . اما هي فمن الصعب أن تنظر الى الامر بهذه السهولة فعلى كل حال هي في محكمة وامامها حاكم وبيتهم اعتاد على سمت اخر في الحياة . اما ما دار بعد ذلك من حوار ملتهب متدفق فكاد يفقدني عقلي ، فهذا الحاكم يتطفل ويتطرق الى التفاصيل ، الى الاعماق ويسأل الرجـــل ماذا يشتغل ؟ وتسارعت دقات قلبي وداهمني رنين ودوار . وراح ذيب يتخلص من الكلمات ويرحيها على فيالها تسبح في جو المحكمة ويتبعها بكلمات جديدة ويقول ويشرح ويؤكـــد .

ـــ عمتك العلم عند الله حبلي ... الارض بذار ثلاثـــة مداد ، حلفنا يمين نحط ربنا ورا ظهرنا ان ...

وغطيت وجهي بالاوراق ، وخفق كلماتهم في ثنايا الالحان المنبعثة من قلبي بشدة وداهمني عرق على جبهتي . وتعزيت جدا بهذه القرابه بين الحاكم المذياع وكونت كـلا واحداً متناسقا ، المسربل المضرج وزوجة ذيب ووجـدت نفســي وسطا بين الاثنين ، انا المعدل ، انا المتوسط ، انا المخلــوط وهؤلاء هم أطراف القضية ، جوانب المعادلة ومتناقضاتها ، واعجبتني مكانتي جدا ، لا انا يمين ولا يسار. وشرد فكــري بعض الشــيء !! ينقص ان تقوم زوجة ذيــب وتطبق هــذه القرابة النظــرية بشكل عملي فتربت علــى ظهر الحاكم وتعاشره وتمازحه وما عليه الا احترامها وتقبيل يدها . وهي الامراة اعجبت جدا بهذا المركز ــ بهــذه المنزلة . ورشقــت قاعة المحكمة بنظرات باسمــة مسؤولة مألوفة . اما هــو الحاكم ففغر شدقه من المفاجاة ولواه وطواه وتملصت منــه تكشيرة غطت « باتكيــت » وجهه وبحلقة عيناه بعنف تحـت النظارة وتجمد القلم في يده ، وصار هو الحاكم بكليته عبارة عن علامة استفهام وتعجب وفاصله ونقطتين فوق بعضهما!! كان كمن يستغيث العدالة واسطر القانون وبنوده ونصوصه . تضاءل حجمه حتى خفت عليه ان يذوب ، وذيب يتفرس في فم الحاكم كانه يحدد عمره ومزاجه وهموم حياته . وخيم على المكان صمت مطبق مزغلل . واصبت انا بما يشبه النعاســ اردت ان اقول شيئا فابتلعته وتطوعت « عمتنا » عمني وعمة الحاكم والمحكمة وفتحت فمهــا لاول مرة بصوت مسمــوع ، وترددت في المحكمة كلمات معوجة ومضطجعة واحيانا منبسطة عجيبة اغرب من عجائب الدنيا السبع والعشر والعشرين . ورحت أعد في نفسي برج بيزا وسد الصين والاهرام ، ثــم استثقلت ذلك ورحت اصغي الى ذيب وزوجته اعجب العجائب وهما يشتركان في هذه المداخلة والمواجهة وتفلت منهما كلمات تقال لاول مرة في المحكمة فيها ... التنيــان ، القطــط .. والخيل وسلخ الجلود ... واوشكت ان انسحب مذعــورا فبقيت مذعورا مكورا على نفسي وقد اخذ مني الدور وكذلك من غيري وجلست كالزكيبة وشنب ذيب يقوم ويقعد يشــرق ويغرب والزوجة ترفع على الحاكم اصبعها وتقاطع زوجهــا

ويقاطعها بدوره ، تسكته ويسكتها ويبدآن من جديد ، يفترقان ويلتقيــان ويجنــدان الاحتيــاط مــن القــدرات ويكونان روحا واحدة وجسما واحدا وصوتا واحدا وها هو ذيب يكاد يقوم من مكانه ويهجم على طاولة الحاكم وعمتي تتحفز هــي الاخرى ويفلتان كلمات وحروفا مبعثرة ماتفتا ان تتجمع وتتحد لتصبح جملا مفردة بتصرف تقول : ارض النا اه ... دولة لا دولة فش ... اسلخ جلود ... هاي انا تولد اولد صبي آد حكومة لأ حكام لأ دولة لأ ......

بَدوح اسلب بَدوح

لحسن الحظ ان «الشيخ حميدو» هو من قريتنا ، اذ لولاه لكانت الامور هنا مربكة للغاية . ورغم انه في السبعين من عمره ، فالحق يقال ، لا تفوته صغيرة ولا كبيرة بل يعرف كل شيء . وكونه يسكن في الجهة الشمالية من البلد لا يمنع ان يكون زواره من اطراف الاخر . ومن هم هؤلاء الزوار ؟ الواقع ان كل اهل القرية رجالا ونساء كباراوصغارا يعرفون بيته وطلبوا مشورته اكثر من مرة . اقول هذا من حسن حظنا ، اذ لولاه كيف نعرف في موسم الشتاء ان كنا في سعد ذابح او سعد بلع ثم عن هذه الاعياد الكثيره مثل عيد لد وعيد عبود وعيد الصليب ! ! وهو يعرف حسابات المربعنية والخمسنية والمستقرضات كانون لصم كما نعرف نحن اصابع ايد .

ولكن من السخف القول ان عمله ينتهي مع انتهاء موسم لشتاء فها نحن الان في فصل الربيع وزرع بذور الخضار في فاخبرها الشيخ حميدو انها موجودة في الجهة الشمالية ،

ـ الشيخ حميدو بيقول اليوم فارغ بلاش تروحوا تزرعوا . فيعود الناس الى بيوتهم مؤجلين العمل الى غد او بعد غد او بعده ، واذا صادف واخطأ واحد الحساب وزرع في اليوم الفارغ فالزرع لا يثمر ابدا بل ان ازهار الكوسا والخيار والبطيخ والحروش تذبل وتسقط دون ان تعطي ثمرا ، وكل ذلك لانها زرعت في اليوم الفارغ ولم يسأل صاحبها الشيخ حميدو ، وفوق ذلك تقع العداوة بين هذا الرجل والشيخ حميدو لانه لم يسأله مسبقا ومعنى هذا انه لا يعترف بعمله وبفضله ، ويروح الرجل يحلف بالطلاق على امراته انها ليست مقصودة ، ويكفيه عقابا انه خسر تعبه طيلة النهار . ولان الناس يريدون ان تبقى علاقتهم حسنة مع الشيخ حميدو فهم

يكثرون من السؤال ، ويحقق الرجل مع زوجته اذا سألت الشيخ وماذا قال لها بدقة متناهيه ، لان النساء هن اكثر من يسأل عن هذه الامور .

ويقولون ان وجود الشيخ حميدو قضى على الحرامية واللصوص في البلد ، لانه ما من سرقة تسرق الا ويعرف موضعها حتى ولو كانت في جبل «قاف» ، وقبل مدة ضاعت عنزة «رتيبة» الارملة . العنزة البيضا الشامية المقاتي قائم على قدم وساق فقط قبل التوجه الى الحقول للزراعه يجب سؤال الشيخ حميدو ان كان الزرع اليوم «فارغا» او «ملأنا» ، وكل واحد من القرية يدث الخبر الشافي لجاره او قريبه وفعلا بعد التفتيش وجدت بقاياها هناك بعد ان ذبحت واكلت في الوعر ، وهو يقول انه يعرف اللصوص ايضا ولكن خوفا من وقوع خلاف بين الناس فلا يذكر اسماءهم بل يكتفي بتعيين الجهة الموجودة فيها السرقة .

اما ما حدث لي شخصيا مع الشيخ حميدو فيختلف عن ذلك نوعا ما ، لان مشكلتي ليست في فقدان عنزه شاميه او بلدية ولا في زرع الخضار ، المشكلة هي في اني افتش عن واحدة احبها من بين صبايا القرية ، وتعبت كثيرا ولكن دون جدوى فكل الفتيات «مضبوبات» الى درجة كبيرة ، اما اصدقائي فيقولون انهم «صاحبوا» عن يد الله ويد الشيخ حميدو ، كيف ؟ ! هذا سر لا يبوحون به لاحد . وصديقي سامي يلومني ويسخر مني كيف لم أجد واحدة حتى الان وانا ابن الخامسة عشرة وبلغت مبلغ الرجال وانه هو الذي يصغرني بأربعه شهور يرتع في الكيف :

ـ احنا مهيصين ! ! هاي المناديل والمحارم شوف ! !

وشعرت بالحسد والغيرة وهو يريني منديلا اصفر بلون الزيت تفوح منه رائحة العطر والكالونيا ، وان صاحبته دقت له شامة في ظاهر يده بالابرة والفحم .

ـ تعال معي على طريق العين لترى بنفسك . ودفعني الفضول لاوافق في الحال ، وخوفا من فوات الفرصة لم افارقه من ظهر ذلك اليوم .

ـ انت تقعد تحت التينة البياضية وانا على الطريق ، ممنوع تتحرك ! !

وقبيل المغيب نزلنا سوية الى طريق العين ، وكانت ريح شمالية تهب بقوة وتثير الغبار والقش واغصان التينة فوقي تخرج حفيفا قويا وبسبب ذلك لم اعد اسمع وقع خطوات الفتيات على طريق فاضطر الى رفع راسي قليلا للالقي نظره متفحصه حذر فأجد سامي يفرك عينيه من الغبار ويمسد شعره بيده ولكنه ما ان يراني حتى يومىء الي غاضبا ان انبطح فاذعن لطلبه حانقا . ومرت فتاة في العشرين من العمر تحمل على راسها جرة ماء ، تلهث وهي تصعد الطريق الصعب ، وتسارعت دقات قلبي ولكن قبل ان يصل اهتمامي الى الاوج كانت الفتاة قد مرت دون ان الحظ شيئا ، اما هو فقد قفز من فوق جدار الكرم لاجده بقربي مندهشا :

ـ هل رايت كيف غمزتها ؟ ؟ وحركت راسي لاعبر عن النفي القاطع

ـ ايه !! ما بتصدق ! ! وهي غمزتني . كل يوم الاقيها على طريق العين .

اما انا فبقيت صامدا في موقفي لاني فعلا لم ار شيئا وعللت ذلك لاني كنت منبطحا على الارض كما اراد .

ـ يعني انا كذاب !!

— يا أخي مش كذاب بس أنا لا شفت ولا قشعت ! !

— عمرك ما تشوف . ايش بدي اعملك اذا كنت واحد بارد ومجنون ؟ وابتلعت الاهانة وافترقنا على فص كما يقولون ، ولكن ان يقول لي باردا مجنونا فهذا كثير ، وهو يعلم اني كنت صاحب المبادرة في كل السرقات التي قمنا بها قبل سنين . كنت اسطو على اللوز والمقاتي كسبع الغاب وهو يكتفي بمراقبة الطريق لانه لم يكن يجرؤ على السرقة . . . وشعرت بحاجة ماسة لان افعل شيئا واثبت رجولتي . طلبت خمس ليرات من أمي بغضب وبطريقة لا تترك مجالا للرفض او للتردد ، واخذتها بعد كشرة وتنفيخ وأمي تقول : يقطع المصاري كنك بالوعة امبازح اخذت نص ليرة !!

كنت وانا في طريقي الى الشيخ حميدو كمن يذهب لتسلم وظيفة محترمة ، وقبل ان اطأ العتبة تحسست الورقة في جيبي فوجدتها تنتظر وتخرج قرقعة لانها جديدة فزادت قيمتها عندي وتوسمت فيها الخير . ورفع الشيخ نظره عن الكتاب والنظارة البيضاء على عينيه ، ولان نظره كان شحيحا فقد راح يتفحصني بدقة واناة .

— أقعد عمي !! اما هو فتابع القراءة الصامتة ، وبعض الكلمات تخرج بصوت مسموع كمن يخاطب أحدا . وتذكرت أول مقابلة لي معه وانا صغير مع أمي ، كان ذلك عندما فقدت بقرتنا المنورة وعندها فتح الكتاب ونظر فيه طويلا وبدا يصرخ :

— البقرة المزهره ويـن موجودة ؟؟ واصاخ السمع كمن ينتظر الجواب .

— ها ها . . طيبة ولا ميتة ؟ ؟ . . كيف ما بتعرف ؟ ؟ والنعم من الله . . لا اله الا هو . . .

البقرة يا أختي موجودة في الارض الغربية روحوا وراها بتلاقوها . ولكن عندما عاد الرجال من الوعر يومها وابي معهم لم يجدوا البقرة . . وقر رأيهم انها سرقت وبيت لاحد الجزارين .
ترك الشيخ حميدو الكتاب مفتوحا ونظر اني مرحبا :

— نعم عمي خير ان شاء الله ؟ ؟ وخرجت من فمي .ضع كلمات قلتها بخجل وانا انظر الى الارض ، وناولته الخمس ليرات فأخذها بفتور وبدا عنيه انه لا يفكر فيها أبدا ثم شجعني ان اتكلم بلا خجل وان الزواج قسمة ونصيب كأمر الموت ، ولكن السعي والوساطة ليست منكوره ، فأفهمته القضيه ، وقطب وجهه وهو ينصب ثم اعاد النظر في الكتاب ، وسألني عن الحرف الاول في اسم الفتاة التي ارغب في الزواج منها واسم أمها .

— ف . ر .

واخرج ورقة من جيبه وراح يكتب . وناولني شيئا ملفوفا في ورقة اخرى قال انه بزر برش وبدا في التعليمات ،

كان علي ان ارش البرش على الارض حيث ستمر الفتاة ، ويكفي ان تلمح الورقة التي سأحتفظ بها في يدي اليمنى وقد كتب فيها بهذا : «بدوح اسلب بدوح على قلب ف » . وقال لي ان هذه الوصفة تنطبق فقط على اول من يرى الورقة ويدوس على بزر البرش حتى على البهائم والمواشي !!وشعرت بضيق وارتباك من هذا التعميم واذا ، لا يمكن ان تكون طريق العين او البيادر ملائمه لذلك لان الدواب والمواشي هناك اكثر من الفتيات .

ورحت اتحين الفرصة الملائمة ، امضي الساعات الطويلة في الطرقات والازقة وحر تموز على اشده وانا مضطر الى لبس الجاكيت لان قميصي بلا جيب وعلي ان احتفظ

بالورقة والصرة في الجيب . واهلي واصدقائي يتساءلون : ماذا لي في الدروب طيلة النهار !! لكني لم اعر هذه التساؤلات اي اهتمام فهم لا يعرفون شيئا مما تجب معرفته . وفي عصر احد الايام رايتها ذاهبة الى الكروم وحيدة ، كدت اطير من الفرح وانا اعلل نفسي بالصبر ، ساعة من الزمن وينتهي كل شيء ، سأبذر حب البرش واجعلها تلمح الورقة . . يتبع ذلك فورا كما يقول الشيخ حميدو انها ستتبعني الى حيث اريد وتستجيب لكل ما اطلب ، سوف تموت في حبي ولا تقدر على فراقي ، وتخيلت نفسي اداعب شعرها الخروبي الطويل واشبع وجهها بالقبل ثم سأتزوجها . . لم لا ؟؟ واذا عارض والدها سأعمل له ورقة اخرى عند الشيخ حميدو ، ما اسهلها من طريقة هذه البدوح اسلب بدوح وبزر البرش .

وشعرت باضطراب ثقيل وانا اهيىء نفسي للقاء ، اخرجت الورقة والصرة وهي تعود من الكرم بعد ان طرحت قفة الكناسة . وبطريقة خفية وبحماس بذرت ما في الصرة على عرض الطريق بعد ان تأكدت من خلو الطريق من المارة والمواشي ، وطردت قطه كانت تجلس تحت الطريق بعيده على جوار الكرم فولت هاربة مذعورة . وبارتباك فتحت الورقة ووضعتها في اليد اليمنى والفتاة تنظر باستغراب ودهشة ، وانا متأكد من ذلك ، وداست على بزر البرش تماما وانتظرت بقلب خافق . . ولكنها مرت مسرعة بعد ان طرحت علي الوقت . . وادارت ظهرها مولية وانا مشدوه ، لا يجب ولا يمكن ان تمر الامور هكذا ! ! شعرت بانكسار وتخاذلت وقررت ان اقرأ بصوت عال : بدوح اسلب بدوح . . .

والتفت هي الى الى الوراء ونظرت بدهشة ولكني لم اقل شيئا ثم تابعت طريقها وانا انظر الى بزر البرش على الارض وامسك الورقة باليد اليمنى واكرر : بدوح اسلب بدوح !

العلم

مـــرت الفتاة تلميذة الصف العاشر بنظرها على لائحة الدروس اليومية ، كانـــت وافـــرة متنوعة ، ولا بـــد من ساعات لانجازها ، وستقوم بذلـــك حتما كمـــا اعتادت ، فليس واردا بالحسبان ان تسبب لوجـــه المعـــلم الطـــافح بالبشر والامـــل والحب ، الانقباض والعبوس ، ولا تريده أن يوزع عليها نظرات الدهشة والتعجب ، رافعـــا حاجبيه معاتبا لامسا مداعبـــا لاقل تقصير ، لاقل خدش في الواجب المدرسي ، اكثر من ذلـــك فهو يرغب ويقصـــد الربط بـــين الواجبين المدرسي والوطنـــي ، فـــالاول جـــزء لا يتجـــزأ مـــن الثاني كمـــا يقول ، ويثبت ذلـــك بحماس ، وايجـــاز مقنع تماما كتطبيق المسائل الهندسيـــة ، والتلاميذ يخلقون بحركـــة رؤوسهـــم عـــلامة الايجاب والموافقة .

لكن ذلك الشيء الموضوع بعناية في ركن الغرفـــة لـــه شأن آخـــر هذه الليلة ، ولـــه رهبة يخفق لها القلب على الدوام ، وتحس هـــي أن لديها طاقـــة هائلة توشـــك ان تنفجر وتثور . أثاث الغرفة كله ملتفت الى تلـــك الناحية ، الكتب والحقيبة ، لوحـــات الرسوم والخطوط والآيات . . وكذلـــك النجوم المشعة عبر فرجة النافذة والتـــي ظلـــت تختلج كمـــن تصفـــق لذلـــك الشيء ، كمن تدعوه ليـــأتي اليها ، ليقطـــع المسافة بينهـــا وبينه :

ـــ قم ! ! امش . . . طر . . . تحرك . . . ارتفع !!

واهتزت الفتاة ، قامت ، مشت ، طارت . . . ارتفعت واحتوت بنظـــرها ارض البيت والسقف وانزوايا والجهـــات والنجوم ، صارت كل هـــذه لاشياء شيئا واحدا معـــه ، هي هو وهو هي . . . وشحنت خفقات قلبها جـــو الغرفة بدفء وعزم ، انصهـــر كـــل شيء بالواجب ، صار الواجب كـــل شـــيء .

المساء الربيعي يتقدم وهي مشدودة الانتباه والاحاسيس كوتر القوس المهيأ للانفلات ، وفي العالم تموجات لاغط وآلاف الاصوات والمقاطع والحروف تسبح داهمة هائمة كبهار الشمس في سماء المدينة الكبيرة والارض تغلي ترجع في الليل صخب النهار المتداخل المرتعش مع فواصل من الوجوم والترقب كتلك التي تتبع فعل الامر الصارم القاسي للاقدام على عمل ذي بال . . كل ذلك امتداد وقوة استمرار لدائرة صغيرة لحركة بسيطة اسمها « السكون » .

والفتاة جزء من مجموعة عليها القيام بالعمل هذه الليلة ، هي الفعل ورد الفعل وثاقت لمجيء زملائها ، وفيهم المهواش الفظ الشرس ، والنجيب الذكي والهادئ والعادي والمترفع بعض الشيء ، لكنها خلطت هذه الصفات معا ورجتها في مخيلتها بارتياح ورضا لتكون مركبا ودودا مستحبا .

نلتقي وننفد وبعدها يتكرر المشهد اليومي ، حجارة عصي ، نار مطاردة متبادلة ، صراخ وهتاف ، اشتباك واكمال المشوار . . كلا لم يكن المقصود هو القاء قنبلة ولا زجاجة حارقة هذه المرة . . وسرحت لحظات في عالمها الشاب المتحرك المندفع على الدوام ووقفت عند الصوت والشظايا والمفعول ، الامر اليوم غير ذلك .

الليل يحبو كعجوز ، ومرت في ذهنها صورة فظة لبناية المدرسة . . ساحتها ، غرفها ، الحوار بين المعلم والتلميذ ، والجرس المنادي لا يكل ولا يمل . . وعلى قرع الجرس تواعدوا واتفقوا على كل شيء . . هكذا فهموا من نداء الجرس المتواصل المبتور ، وتجسم في ذهنها الامر اليومي في اللغه العسكريه لم تسمعه يقال بالحروف والكلمات ، لم يلق من مكبر الصوت ، لكن له دوي داخلي عميق كالوحي لا يرحم يظل قاحما

متحركا ومحركا حتى تؤديه ! ! وهو واضح كفلق هذا الصبح ، ثقيل كالثأر ، كالجمل قبيل المخاض ، لم يكن هذا الوحي من السماء ولا من مكان سحيق غير عادي بل تحس به يتدافع من الازقة والطرقات ، تراه في دخان المصانع المجدول ، في ايدي العمال الثقيلة الملطخة، في اغصان الزيتون والصبار ، في فراش الولادة الدافىء وتراب القبور البارد الموحش المهجور ، في لغط الاولاد وترانيم الامهات ، في خفقة ضوء ينطفىء على عاشقين تذوب في ثناياه قعفعة المجنزرات والطلقات النارية وخطوات الجنود وكل المعالم الدخيله المقافزة التي تحاول الالتصاق بهذه الارض لتأتي هي الارض تجهد وتصر لقذفها بعيدا كما تتقيأ المعدة الطعام الفاسد لتعتدل وتنسجم .

وسمعت نقرات على الباب وفتح بثقة ليدخل عدد من الزملاء وربت احدهم على كتفها ، ومس واحد ذقنها هكذا يحلو لهم ، ولم تهز كتفها هذه المرة .

— جاهز ! !

وخطت باتجاه الركن خطوات متقاربة فرحة «كعروس تلاقي عريسها» ، ككاهن يلمس الضريح المقدس برهبة ، وجدت ذلك الشيء جاهزا قابلا يريد الظهور والنور ، ولمسته فتموج بين يديها واختلج كأنما دبت فيه دفقة الحياة ، وتسارعت دقات قلبها ، تكلمه بسيل من الكلمات والمناجاة والعتاب والنداء . . وتطلع الجميع بخشوع ، وللحظة كانوا معا ، وكان كل واحد مع نفسه ومع الآخرين ويرسلون اليه نظرات مهيبة وكأن الواجب قد تجسد فجأة في ثناياه ، كيف اشرح ذلك تماما ؟ انه شيء من هذا القبيل . طرحه على صدرها ، لفته تماما تحت ثيابها فغطى صدرها بحب ولفة ضمها كحنان الام ، وزاد ارتعاش قلبها فخفق هو الآخر فوق دقات قلبها ، كعرق حي ينبض ، صارا شيئا واحدا مندغما لا يتحلل ،

واستسلمت لحظات لملمسه ، كالدغدغة كالتشبث والتعلق . . . وبالحاح عظيم كالامر المقدس .

انهضي ! ! قوموا ! !

تود لو تغفو فتسري في روحها موجة من التحفز والنهوض والاداء ، تود أن تتحرك فيمسكها حنين الى اغفاءة معه ، ان تغمض عينيها فلا ترى سواه ! ! لكن كيف ! ! يواجهها الموت ، موت الكثيرين ، تمر امام مخيلتها ثهارات معتمه دخانيه حرائقيه ضاجة مختلطه دبابات تحبو في الطرقات بصرير مرعب ، زرعت غربة ويتما ، كسفت مدينتها بلطخة عار وهي تنتفض للتخلص منها ، خسف قمرهم بالجريمة وظل يشع مطمئنا بالتخلص والتفوق وهي انطفلة ماذا تعي من كل ذلك قبل سنوات ؟؟ كل ما تذكره انها احست فجاة بالبارود بالفرقة ، بوجوه غريبة ، بالخراب ، عبس كل شيء وقطبت الوجوه ، كثيرون خرجوا ولم يعودوا ، لاول مرة ترى الكبار ينتجون كالصغار وفي اصواتهم كدمات ووقفات . وقل عدد الجالسين حول مائدة الطعام وانكفات الالعاب مرمية ، ومرت فترات طويلة دون ان يحل العيد كالعادة ، وظلت ملابس بلا استعمال ، وغرف فارغة وتشوهت الجدران وواجهات الحوانيت . . لم تطلق السيارات صفيرها بانشراح بل صارت «كتابوت» متحرك ، وخافت من كلمة الاحتلال الذي صار لطخة في شمس حزيران .

— احضرتم كل شيء ! !

نطقت الفتاة بدهشة كمن تلحق نفسها وتتخلص من هذه الافكار المعلقة .

— العصا على جسدي تحت انثياب ، والمشي معها ليس مريحا ، تظل يدي في جيبي اقبض عليها ! ! حكى الزميل بمرح تمثيلي .

الليل حالك ، ونفث سواده كما تصوروا عيون الجنود المسعورة الغاضبة ، تجوب المدينة اللاهثة لتي تطلق انفاسا كطلق المخاض ، واحست ان هذه الارض حامل . وسارت المجموعة في الدروب ، منتشرة في الطريق جانبي مظلم ، تلمس البنايات الهرمة العتيقة تتحس امجاد البنائين والحجارين وتشم رائحة عرقهم المجد انتصار وانبعاث . وضغط ذلك الشيء على صدر الفتاة مع كل خطوها كالمارش مناديا وملبيا ، وضغط صدرها عليه مجيبا ملاقيا ، كان الاثنان في عناق واشهدت كل ما يحيط بها من الافق الى الافق وما بينهما قبل ان تبدا العما شمول وعظمة كالخلق والنمو .

مسدت عليه قبل ان تفكه ، كان حارا كصدرها ، وبحركة ارادية وغير ارادية تلقائية مرر الزملاء ايديهم عليه بهدوء كالقسم .

— اياك نرفع وشريط الخيانة ننزع ! !

وتقدم الفجر حالا بلا مقدمات ، وقد اخذ العتم مكانه فوق البناية . واشتعل شيء في صدرها وارتفع ، والتقت عيونهم .

ها هو يطل على الارجاء والانحاء ، ومع خفقاته تخفق كل البناية ، اهتزت وماجت تقدم التحية ، وهذه صفوف البيوت في وقفة استعداد واستنفار ، ورفعت انفتاة يدها محيية . . كان عاليا جدا ، اعلى من كل شيء ، وفي الحال تنادي نسيم الصبح الربيعي فخفق مع النسيم وتموج كالبحر وبرزت تلافيف دقيقة كتلك التي تكونها ابتسامة امل على وجه وسيم ، وداعبه الشروق فتورد وتضرج وتقبل اشعه الشمس ، وتبادل النظرات مع البيوت والمعامل والساحات ، كل الاشياء تنظر انيه واحست هي ان الارض الحامل تحط حملها ، تلد بعد انتظار

فزغردت زغرودة متراقصة مرتعشة هيفـــاء ممشوقـــة بلا
ترهـــل ، وخرج الناس من البيوت فرأوه في مكانه الطبيعي
وكبرت الزغردة حتى اصبحـــت تتدافـــع من كـــل ارجـــا
المدينة ، صارت تتدفـــق في نهوض النيام وترقيص الاطفال
ويدهـــا مرفوعـــة تحيـــي ، واختلط كل شيء ، الهتـــاف
والنشيد ، وحدثت جلبـــة مفاجئة نشاز فـــي لغتها وحركتها
واتجاههـــا ووجودهـــا . كانت ثلة من الجنود تنظر ببلاهة
وخوف الى اعلى البنايـــة ، وكم بدت منخفضة واطئة تلـــك
العيون بالنسبة له هو العالي المرفوع ، هو يسمو ويخفـــق
وهي تنحط وتتقافز حتـــى صار الفارق هائـــلا لا يصور ،
وانفلت ازيز الرصاص ، وجسم غـــريب يصدم صدرهـــا ،
وشيء يتكسر ويتحطم ويتمزق ، وصرخت هاتفة مرفوعـــة
الهامة والقامة واليد ، واختلجـــت شفتاهـــا كمن تتساءل
هل قامت بالواجب ؟ ولوحت الجموع لهـــا وتدافعت دمـــوع
الفرح ، وانبثق من صدرهـــا سيل احمر واجه حمـــرة العلم
ووقع نظرها عليه مرفرفا له صوت النبضـــ الحي ، وفـــي
البعد لاحـــت خضره القمم واختلطت بخضره العلم كشيء
واحـــد متصـــل .

اما الجو فـــراح يعتكـــر في نظرها ، أسود بما فيـــه
الكفاية ، راحت تترنح لترتمـــي ، لتسقط ، وخفق العلم خفقا
متسارعا وزغلل نظرها وتراوحت الالوان سوداء وبيضاء
تلاشى نظـــرها وكبر العـــلم ، صارت تراه يغطي المدينة ،
واختلط بالبيـــوت والمدرســـة ودخـــان المعامـــل الملوث
والساحات ، كادت تضيـــع رؤية اي شيء ، صار العلم
عندها يغطي الجبال والمحيط والابعاد والافق ، وكون صورا
مألوفة تحملـــها في عنقهـــا ، نظرت اليه بكل ما أوتيت
من قوة ، وتكلمـــت الجموع ، وخرس الجنود في سمعهـــا
واستجمعت ما تبقى من حلاوة الروح لتبتســـم . . . لهذا
العلم الكبير . . . كـــان آخر ما رات ظهور الجنود وصدور
الجموع ، والعلـــم يكبر ويلفهـــا ، كان اكبر من كل شيء
كـــان اعلى من كل شيء .

استقبال الحاكم

بحسب ما يقتضيه عملي في الصحافة ، رحت انتظر سيارة تقلني الى هذه القرية ، كانت محطة السير مفتوحة ترشقها الريح من كل الجهات ، ونتف الغيم تمر مسرعة ، ونقاط المطر تتسلل الى وجوهنا ..

وكان العصر شديد البرودة، والمحطة مقفرة من المسافرين والسيارات تمرق مزمجرة مطرطشة الماء على شكل نوافير من تحت العجلات الغرقة ذات السواد اللامع .
اخيرا ، وبعد انتظار اخذنا امكنتنا في سيارة عتيقة ملئت ارضها بمواد البناء . وعلى ملابس الركاب لطخات من الكلس والاسمنت وصدأ الحديد ، يفركون ايديهم المحورة الخشنة فيسمع صوت جاف غليظ .

كان الطريق ضيقا غرقا تحف به الاشجار الوعرية، وحصى الاسفلت ينتعف مسمعا طرطقة كحب البرد . والريح تلسع وجوهنا وتلعب بمشمع السيارة . ولم تظهر بيوت القرية بعد

ولهذه القرية حكايات في اذهان الناس حولها ،والمتنذرون والمتفكهون يجدون فيها مادة لنكات وحكم بالغة .

مرة بذروا بعر الجمال حاسبين الارض ستنبت جمالا ، وان احدهم ربط حماره في سلم الباص الواقف ليجمع الركاب .

وان اهلها ظلوا يتعاملون بالعمله الفلسطينيه ولم يسمعوا ولم يعترفوا باحتلال الجليل سنة ٤٨ .. وهم يتقبلون ذلك بطيبة ولطف ويردون الصاع صاعين .

كانت الارض المحروثة المسهدة تستقبل زخات المطر بشوق وفهم ، والزرع في بداية نموه ، قد بدا يعطي الأرض لونه الأخضر الهش ، والقرية ! ! عبارة عن بيوت متزاحمة متلاصقة تتوسطها بركة ماء عكر ، فيها رائحة الأرض والتبغ المعلق كبوشا في السقوف ، فيها رائحة القمح والروث والمواشي ودخان المواقد ، وطرقاتها الموحلة مرشومة بدعس الدواجن والطرش ، وفي بيوتها اطباق القش الملونة ، واهلها ينظرون الى الزوار باللباس الافرنجي نظرة تحفظ وتساؤل ، وكذلك الى الأوراق من موزع البريد ، والى الاوراق بشكل عام .

— هذا الطريق تتغندر عليه السيارات اليوم ، لم يفتح بهذه السهولة ! ! قال الرجل ذو الشارب المتوسط المتهدل ، وتفحص بنظره مدى اهتمامي بالموضوع .

يومها قررنا دعوة الحاكم لزيارة البلد . كان ذلك قبل سنين ، في الربيع ، وجاء الربيع حارا لافحا ، واخضرت الجبال وازهرت اجباب الغوردة واينعت ، وقست اشواك السويد ويبست رؤوسها ، وخشنت اوراق السنديان وجرشت .

هكذا نحن — ما ان يقول احدنا رايا صائبا حتى يصبح رأي الجميع ، واستعدت البلد لاستقبال الحاكم في اليوم الموعود في آخر الربيع ، وهيأنا فرسا اصيلة له ، فلا شارع لبلدنا ، وبالنسبة لعدد منا نحن الشباب كنا نعلم أن الفرس لا لزوم لها .

ووصل الحاكم ولمرافقان الى بداية الطريق الوعري للبلد وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة بنت ساعتها . واظهر

المزيد من اللباقة والالفة وهو يرى جموع الاهالي تخف لاستقباله . وراح يحي الشيوخ بخضات سريعة من رأسه وهم يشون له بحرارة . واعجبته حالة الطقس ، والجبال الخضراء ، والهواء النقي ، ونظر الى الأرض المزروعة باستفهام وكأنه يريد أن ينطقها ، أن يكلمها بلغته ، وزفر بعمق ، وكان على وشك أن يعانقها بحنان . . .

اما الأرض كما تخيلناها فكانت تضحك لنا ، كانت تضحك للفأس والفدان ، ولم تفهم الا اللغة التي نخاطبها بها نحن ، وقد تكون اللغة حبة عرق من صبايا البلد ، أو نهرة على فدان من حراث . . . او سياج يمنع الاذى عن الأرض .

ورايت الغزل والحب في نظرة الارض الى اهلها ونظرات الاهل الى أرضهم نظرات الوفاء والاخلاص والبقاء على العهد . . .

واندفعنا نحو الحاكم شلة من الشباب . . .

— وحياة راس سعادتك . . . لا تصل البلد الا على الاكتاف ! واعجبته هذه النخوة ، ولكن . . .

. . . ونظر الى الطريق الوعري الطويل الممتد . . وقبل أن يحتج أو يرفض ، رفعناه على الاكتاف .

وجر احدهم الفرس بلا فارس ، فمشت غير معتادة على هذه المعاملة .

.

والتقت عيوننا حول جسم الحاكم . وخلقت بسمات صفراوية ذات معنى ونظر الجميع الي بتحبب .

واظن اني فهمت نظرات الشبان ، وفهموا من نظراتي ما حدث في القرية قبل سنوات : لم يخيم الحزن فقط على البيوت المتجاورة ، بل شيء غير الحزن كذلك .. . .

كان الطقس شتاء ، وقبع الناس والمواشي في البيوت الدافئة ، ولطيلة ايام ظل المطر ينهمر والجار لا يطل جاره كما يقولون .

فجأة بدأ الاطفال يموتون ، ومرض الجدري يغور في جلودهم واجسامهم حتى يقضي عليهم ، والطفل المصاب يستكين بلا حول ولا قوة ، يرتمي في الفراش رخوا يتألم وينقل نظرات مكسورة مستغيثه مودعة في الأهل والدار ثم يتلوى ويلهج ويفارق الحياة .

وما ان يكمل الناس مشوارهم وراء تابوت طفولي يوارى في التراب الموحل ، حتى يعلن عن موت طفل آخر . والامهات يرتمين على اطفالهن الأحياء بجنون لحمايتهم من المرض والموت .

وفقدت القرية البسمة والفرح لأيام طويلة ، وعبرت نظرات الناس عن ذهول مخيف ، وخفت صياح الأطفال وفقد آخرون اترابهم فجأة ، ووجدوا انفسهم في غربة مريعة وغير مفهومة . واذا حطت بومة تائهة على شجرة الجوز العارية ينتظر الناس موتا جديدا ، واسكت الناس كل كلب يجوح بصوت محطوط الاكتفاء شره وشؤمه ، وصار صياح الفراريج المترجرج ممقوتا . اما الرجال فقد نكسوا رؤوسهم وعلى وجوههم رقد الغضب والقهر والتلبك .

والتقت عيوننا مرة اخرى حول جسم الحاكم ، وخلقت بسمات ذات معنى . ونظر الجميع الي بتحبب اكثر هذه المرة .

وفي مكان ما عرشت اغصان السويد والسندبان فوق الطريق ترسل اشواكها الحادة التي استدقت كالابر .

وتراوحت امام مخيلاتنا صورة الاطفال العشرين الذين كان البلى يدب في اجسامهم تحت التراب ، حيث تهرأت ملابسهم الملونة ، وكتت شعورهم الطفولية وتشوهت ايديهم الصغيره المحببة ، وداهمني غضب دافق ، وشعرت ببدني يرتج ، وبشيء في داخلي يصرخ . . . فهتفت :

— همة يا شباب ! ! حملنا غال عزيز ! ! ارفع ! !

ورفعنا الحاكم بقوة وانجردت اشواك السويد والسنديان على وجهه ، وسمع لذلك صوت مألوف ، ومرط شعر راسه الخفيف وانتعف ، وخلقت على وجهه خدوش وخطوط متشابكة متعرجة .

واحتج هو وبلعط بيديه محاولا الافلات ، وحرك رجليه ، ولكننا ثبتناه اكثر ، وهذه المرة تألم من شدة قبضنا عليه ، ولكن الطريق طويلا وكانت القصة طويلة . .

ولم تعجبنا نظرات الحاكم الى الارض ولا اللغة التي تكلم بها وهو يحاول أن يحتضنها ، وتذكرنا كيف كنا نطير ونطرد البومة الجاثمة لنبعد الشؤم عن البلد .

وجهد احد مرافقيه لافهامنا بانزاله ، فاعتبرنا ذلك يحط من قدره وحظوته عندنا ، وان هذا من واجب الضيافة عندنا ، وكانت الدرب غشيمة عكسة ، فيها الصخور الناتئة والحفر ، ووقعنا دفعة واحدة في احدى الحفر ، ولكننا حرسنا الا يقع الحاكم ، والا يفلت من ايدينا ونهضنا بقوة اكبر ، واطلقنا العنان لحناجرنا نردد المحوربة بحماس، ولم نعد نحس بما حولنا ، ولم يعد يهمنا الاسلامة الحاكم ، ونحن تارة نقع ، واخرى نخبط بحجر ناتيء وثالثة تحف بسعادته اشواك الطريق ،

ووصلنـــا مهشمين مخضخضين ، ولطخـــت الصفـــره الضيف الغالي ، وكـــان كمن يريد أن يتقيأ .

عندها ، شرحنا له مأساة الاطفال ومرضـــ الجـــدري وانه لا يوجـــد لبلدنا شارع ولا طبيب ، وان حضرتـــه بعد هذا المشوار اصبح سيد العارفين بخطورة ذلك وضرره .

وفلتتت الشمس نورها على الأرض والجبال الزاهيـــة وعندمـــا صمت سعادته مشدوهـــا مدعوكا ، رحنا نكـــون لانفسنا ولقريتنا ، اسطوره اخرى سمعـــه جديده ترســـخ في اذهان الناس وتتعايش بسلام مع الفكاهات والاحاديث والبعيد أساطير من نوع جـــديد عن بلدنا والطريق والارض اللاذعـــة التي يتناساهـــا الناس حولنا ، ويحفظ القـــريب المكتملـــة .

الجمل